

كلمة المؤسسة لتكريم الأستاذ محمود أمين العالم بمناسبة منح جائزة ابن رشد للفكر الحر له في برلين يوم 8 ديسمبر 2001 يلقيها د. حامد فضل الله (عضو الهيئة الاستشارية للمؤسسة)

سيداتي سادتي

الضيوف الكرام

من دواعي الفخر والإعتزاز أن نجتمع اليوم في "دار الآداب" ببرلين لتكريم الكاتب العربي المصري الأستاذ محمود أمين العالم لمنحه جائزة ابن رشد للفكر الحر لهذا العام.

وقع الإختيار علي الأستاذ العالم بقرار من لجنة تحكيم مستقلة ضمت شخصيات ورموزاً فكرية وإبداعية من أقطار عربية مختلفة.

بالرغم من شهرة الأستاذ العالم إلا أننا نود أن نفرد سطوراً قليلة لجزء يسير من سيرته الذاتية ومراحل حياته الصاخبة والمثيرة وهو لا يزال يواصل مسيرته المضئية الأملنة وفعلة التنويري في ثقافتنا العربية.

ولد محمود أمين العالم في اليوم الثامن عشر من شهر فبراير عام 1922 في حي الدرب الأحمر في القاهرة وعاش في هذا الحي الشعبي حتي أن بلغ الثلاثين من عمره. يقول العالم عنه: - "فأنا لا يكاد يسعدني شيء مثل العودة دائماً إلي هذه الازقة القديمة الضيقة، أحس فيها بحقيقتي وأتشمم فيها عطر الأصالة والعراقة "

التحق بعد شهادة الثانوية بقسم الفلسفة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم) وحصل علي شهادة الليسانس، وقد ظل طوال دراسته يقوم بعمل إضافي لتغطية تكاليف الدراسة.

حصل علي درجة الماجستير من الكلية نفسها وتم تعيينه في قسم الفلسفة مدرساً مساعداً. لأسباب سياسية تم فصله في نفس العام 1954 مع عدداً آخر من الأساتذة والمدرسين من مختلف كليات جامعة القاهرة.

هناك شخصيات نادرة في التاريخ استطاعت أن تجمع بين الإهتمام والعطاء الفكري والإبداعي وبين الإنخراط في النضال السياسي، منهم العالم، الذي استطاع بصورة خلاقة المزوجة بينهم ليصبح مفكراً بارزاً ومناضلاً سياسياً في الوقت عينه.

صدر للعالم حتي الآن أكثر من عشرين كتاباً والعديد من الدراسات والمقالات والمحاضرات في مجالات مصرية وعربية واجنبية، وهو يشرف الآن علي إصدار كتاب شبه دوري بعنوان "قضايا فكرية"، صدر منها حتي الآن عشرون عدداً. يكتب العالم في الفلسفة والنقد الأدبي والتراث العربي الإسلامي والفكر القومي السياسي.

بدأ اهتمام العالم بالفلسفة في سن مبكرة بالمرحلة الثانوية حينما بدأ يهتم بالشعر والفلسفة والشطرنج والتأمل الذاتي - كان موضوع رسالة الماجستير، في البداية، بعنوان "نظرية المصادفة في الفيزياء الحديثة" ثم قام بتغييره إلي "نظرية المصادفة الموضوعية في الفيزياء الحديثة" بعد إطلاعه علي الفكر الماركسي وتحوله عن الرؤية الفلسفية المثالية إلي الرؤية المادية الجدلية وإلي الإشتراكية العلمية التي طبعت مسار حياته. حتي الآن.

يقول بنفسه مشيراً إلي بحثه:

"إنه صورة من همومي الفكرية في مرحلة مبكرة من مراحل العمر. ولعل هذه الصورة أن تكون تأصيلاً لكثير من المواقف التي إتخذتها بعد ذلك."

لقد بدأت مسيرة العالم في النقد الأدبي بمجموعة مقالات ودراسات في النقد الادبي كتبها محمود العالم وعبد العظيم أنيس خلال العام 1954، ضُمت في كتاب "في الثقافة المصرية" (1955)، وقد أثارت المقالات وقتها معركة عرفت بأنها معركة الجديد والقديم في النقد الادبي.

بدأت المعركة بمقال لطف حسين حول صورة الأدب ومادته وعارضه الكاتبان بمقال عنوانه "الأدب بين الصياغة والمضمون" ومنذ ذلك الحين وإلي الآن لم تنته هذه المعركة النقدية حول الكتاب، فمن مؤيد ومعارض ومن ناقد موضوعي وآخر متهافت يخرج الكتاب من السياق التاريخي والإجتماعي والسياسي التي جاءت بها مقالات الكتاب.

تابع العالم منذ الخمسينيات الإنتاج الروائي لكاتبنا الكبير "نجيب محفوظ" بالنقد والتحليل وبنهاية الثلاثية الخالدة توقف "محفوظ" لفترة طويلة ولكن عندما تفاقمت الازمات في ظل العهد الجديد - ازمة الحرية - أزمة الديمقراطية - أزمة القيم وتفشي الإنتهازية - عاد محفوظ لقلمه بمرحلة جديدة من الفكر والبناء الفني إنعكست في أعماله اللاحقة والتي بدأت بروايته الرمزية الملحمية "أولاد حارتنا" والتي لا تزال محظورة في مصر. يقول العالم عن هذه الرواية:

"إن "أولاد حارتنا" ليست كما يقال تاريخاً للبشرية و ليست كذلك تاريخاً خاصاً بمصر، إنما ببساطة - فيما أعتقد - توكيد للمعنى الإنساني الصرف للأديان، توكيد أن جوهر الدين هو العدالة، هو الأمن هو الكرامة، هو الحرية، هو المحبة، هو الخير، هو التقدم للإنسان، إن الأرض ميراث للناس جميعاً وإن المحبة والعدل والأمن والرخاء والسعادة حق للناس جميعاً، هكذا يقول الأنبياء جميعاً، من آدم حتى محمد، من أدهم حتى قاسم وهكذا هو جوهر جهادهم جميعاً"

ثم أصدر العالم كتابه "أربعون عاماً من النقد التطبيقي - البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة" لم يكن نقده التطبيقي موجهاً لكبار المبدعين المصريين مثل نجيب محفوظ، توفيق الحكيم، طه حسين ويوسف إدريس فحسب، بل إلي عدد كبير من المبدعين في العالم العربي. كما اهتم بالأدباء و الناشئين، كان يستمع إلي قراءاتهم و يناقش و يحلل نصوصهم، ورغم ذلك يقول العالم:- "وما أكثر ما أحس بالتقصير إزاء هؤلاء الأدباء والفنانين وخاصة الناشئين منهم، عندما يجرفنا تيار الحياة إلي موضوعات بعيدة عن أعمالهم."

رغم أعباء التدريس في جامعة باريس الثامنة، تابع العالم التطورات الفكرية والنظريات الأدبية الحديثة وناقش وحاوّر كثيراً من الفلاسفة والأدباء والماركسيين الجدد. في كتابه الهام "ثلاثية الرفض والهزيمة"، يقدم العالم نقداً للمنهجية البنيوية في الأدب أو المنهجية الهيكلية كما يفضل ان يسميها. كما يتعرض إلي النظرية ومصطلحاتها الإجرائية و أصولها وركائزها الفلسفية. ويقول في كثيرٍ من تطبيقات المنهج البنيوي ذكاء و لمعان ما يمكن الإستفادة من نتائجه في إضاءة العمل الأدبي.

يستخدم العالم المنهج البنيوي تطبيقياً علي ثلاث روايات للروائي المصري "صنع الله إبراهيم"، "تلك الرائحة"، "نجمة اغسطس" و"اللجنة". وقد ترجمت بعض روايات صنع الله إبراهيم إلي الألمانية.

ناقش أفكار الشيخ علي عبد الرازق، محمد عبده، حسين هيكل، طه حسين، العقاد، زكي نجيب محمود رائد الفلسفة الوضعية في مصر، عبد الرحمن بدوي الفيلسوف الوجودي المصري، وصولاً إلي المفكرين القوميين واليساريين المعاصرين حسن حنفي، محمد عابد الجابري، عبد الله العروي، محمد جابر الأنصاري، محمد اركون، أدونيس، سمير أمين، طيب تيزيني، انور عبد الملك، محمد عماره وغيرهم.

ويمتد نقده، ليس إلي المبدعين فحسب، بل يتعداه إلي نقاد الأدب أنفسهم فيناقش نظرية الأدب أو الدراسات التطبيقية لبعض النقاد مثل سيد البحراوي وصلاح فضل و الناقد و الروائي في نفس الوقت أدوارد الخراط وغيرهم.

وفي كتابه "الإبداع والدلالة" يناقش ثلاثة مفاهيم هي العقلانية في الفكر، والدلالة في الإبداع الأدبي والفني، والخصوصية في الثقافة.

و العالم ليس ناقداً أدبياً فحسب بل مبدعاً شعرياً، فقد صدر له ديوانان من الشعر، وقال مرة في حوار له:

"إنني ممزق بين ثلاث أشياء الشعر والفلسفة والعمل السياسي، بدأت شاعراً وما زال الشعر في حياتي وكثيراً ما رغبت ان أكون شاعراً فحسب وفي بعض الأحيان اجد في الفكر كل شيء لذا مات الشعر عندي."

اهتم العالم بالتراث وصدر له عام 1997 كتاب "مواقف نقدية من التراث". كتب وحاوّر ابن خلدون، ابن رشد، أبو حيان التوحيد، الإمام الشافعي و الغزالي.

كتب العالم عن الفكر العربي المعاصر والفكر القومي العربي. في عام 1986 أصدر كتابه "الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر" كما خصص عدداً كاملاً من مجلة قضايا فكرية بعنوان "الفكر العربي علي مشارف القرن الحادي والعشرين" وإستكتب فيه العالم أبرز المفكرين العرب المعاصرين في بلدان عربية مختلفة.

يقول في بحثٍ له "الهشاشة النظرية في الفكر العربي المعاصر":

"هناك أزمة في الفكر العربي المعاصر ولا سبيل إلي فصلها عن أزمة الواقع العربي نفسه، موضوعياً وتاريخياً. وتؤرخ هذه الأزمة بعصر النهضة وبما يسمى بصدمة الحضارة، اي هذا اللقاء الدرامي بين الواقع المتخلف والواقع الأوروبي المتحضر الوافد بفكره وأطماعه وعلمائه واساطيله وجيوشه منذ مفتتح القرن التاسع عشر."

ويقول في مكان آخر:

"إننا ما نزال أحوج إلي فكر نظري نقدي تأسيسي، وخاصة في هذه المرحلة من حياتنا العربية التي يتفقم فيها التشتت والتفكك والتسطح والإغتراب والتخلف في الفكر والواقع على السواء، علي حين يتفجر عصرنا بمنجزات معرفية وتكنولوجية باهرة تكاد تشكل نقله جديدة في حضارة الإنسان."

ويواصل:

"لن نتجاوز تخلفنا وتبعيتنا إلا بالإمتلاك المعرفي بحقائق الثورة العلمية الجديدة، ثورة المعلوماتية وبمشروع تنموي قومي شامل ذي ابعاد إقتصادية وإجتماعية وتعليمية وثقافية وإعلامية وقيمية. مشروع يستوعب تراثنا العربي الإسلامي إستيعاباً عقلاً نقدياً ويضيف إليه ويستوعب حقائق عصرنا الراهن ويضيف إليه."

و من منطلق مسؤولية المثقف الملتزم بقضايا وطنه، كان ولا بد من إيجاد صيغة للتعاون ولتأييد الزعيم جمال عبد الناصر القائد لمعركة العداة للإستعمار والصهيونية والرجعية وتمسكه بموقفه المبدئي، وقد نجح العالم في إيجاد هذه الصيغة، فارتبط بنظيمات ثورة 23 يوليو 1952 وعمل في إطارها مع تصور إمكانية التحول الإقتصادي الثوري وتحقيق أهدافه وتصوراته مستفيداً من أجهزة الدولة - ثم إختلف معها فكان لا بد من الإختلاف بين رجل لا يتنازل عن مبادئه ودوره التنويري وبين قائد ثورة لا يسمح بالإختلاف والتعدد، فكان لا بد ان يحدث الصدام - وعواقبه من فصل تعسفي وتشريد ثم السجن والتعذيب الرهيب.

ومع تمهيش وملاحقة المثقفين المصريين الوطنيين والتقدميين، وجد العالم نفسه مضطراً أن يغادر مصر. اولاً الى بريطانيا لفترة قصيرة وبعدها إلى فرنسا لتمتد إقامته بها إلى احدي عشر عاماً.

ظل العالم ثابتاً علي مواقف وقناعاته الفكرية بالرغم من كل العواصف والهزات وكان في نفس الوقت لا يخشي النقد ولا يتواني عن النقد الذاتي.

و نشير هنا علي سبيل المثال لا الحصر إلى قوله في إحدى إفتتاحيات "قضايا فكرية" (1990):

"إن الدفاع المتصل عن المثال الإشتراكي المتحقق في الإتحاد السوفيتي فكراً وممارسة كان أقوى من نقد سلبياته ونواقصه."

وعلي الرغم من العذابات التي عاناها العالم في سبيل معتقداته ومبادئه فإنه كان من أوائل المدافعين عن عبد الناصر ومشروعه أو حلمه في الدفاع عن وطن متحرر من اشكال الإستغلال، ويقول بموضوعية:

"و الحقيقة البسيطة التي لا تنكر لثورة عبد الناصر، منذ بدايتها عام 1952 حتي وفاته 1970 كانت ثورة من أجل الإستقلال الوطني والتنمية الإقتصادية والإجتماعية. كانت ثورة وطنية معادية للإستعمار والإمبريالية، معادية للتخلف الإقطاعي والإحتكار الرأسمالي"

ناقش العالم في كتاباته فكر وفلسفة الحداثة وتعرض لتاريخها وواقعها في العالم الغربي وصورتها في العالم العربي يقول:

"برغم الاختلافات المتنوعة والمتناقضة لمفهوم الحداثة، فهناك ما يمكن إستخلاصه منها جميعاً في ضوء تعاملنا المعاصر مع هذا المفهوم، أي أن هناك ما يمكن إعتباره قاسماً مشتركاً عاماً، رغم هذه الاختلافات. القاسم المشترك هو مبدأ التغيير التجديدي التطويري التجاوزي للواقع الإنساني والإجتماعي".

ويفرق بين الحداثة والتحديث فيقول:

"رغم التداخل والتفاعل بالضرورة بين المفهومين، إن مفهوم الحداثة يغلب علي دلالة التغيير الفكري والعلمي والجمالي والقيمي عامة علي حين أن مفهوم التحديث يغلب علي دلالة التغيير السياسي والإجتماعي الإقتصادي".

كما قام بنقد وإدانة فكر ما بعد الحداثة مستعيناً بإسهامات مفكرين وفلاسفة أوروبيين معاصرين، تعرض من بينهم إلي أفكار المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي ومدرسة فرانكفورت - النظرية النقدية في أبحاث هوركهايمر، Max Horkheimer وادورنو Theodor Adorno ، هربرت ماركوزا Herbert Marcuse وصولاً الي يورجن هابرماس Jürgen Habermas، الفيلسوف الألماني المعاصر، الذي يعتبر من أبرز الفلاسفة المعاصرين تصدياً لإتجاه ما بعد الحداثة وخاصة في نقده لفوكو، دريدا، و دولوز وإمتدادهم في الفكر الألماني المعاصر. يعتبر العالم يورجن هابرماس Jürgen Habermas من أبرز المعبرين عن الإتجاه العقلاني ونقد الطابع التقني الوصفي القمعي للعقل في الممارسات الرأسمالية والإشتراكية ومحاوله تنمية البعد الموضوعي الإنساني للعقل من خلال نظرية "العقل التواصلي" التي تجعل من الفلسفة نشاطاً عقلياً حياً فاعلاً مع الواقع الإنساني في مختلف تجلياته السياسية و الإجتماعية والإقتصادية والعلمية والتكنولوجية والفكرية والثقافية عامة. وفي الوقت عينه يعترض العالم علي نقد هابرماس لفكر ماركس ويعتبر فيه إجتزاء كبير وإبتسار للفكر الماركسي.

لقد أوفيت أنت وزميلك الراحل، لويس عوض، بالعهد، وسلمتما الأمانة إلي الشعب، بقولك وأنت تفترق عنه بعد فصلكما من كلية الآداب سنة 1954، وأنتما تحتازان الطريق من ساحة الجامعة إلي ميدان الجزيرة الزاخر بالناس والحركة:

"سوف نغيب عن ساحة الجامعة، ولكن لا ينبغي ان نغيب أبداً عن هذه الساحة التي نمضي نحوها،

ساحة شعبنا، بلادنا، ساحة مصر كلها، سنواصل فيها الرسالة التي يؤمن بها كل منا."

في ختام مقالك بعنوان "التكوين" 1993 تقول:

"أما أنا فما زلت في الطريق العاصف الذي بدأت منذ تلك السنوات البعيدة، اتحرك في مساراتها السياسية والفكرية والأدبية قدر طاقتي، وما زلت اتعلم واحاول ان اتكون و أتجدد كل يوم وأن أكون نافعا للناس والثقافة."

وفي كتابك الجميل "الرحلة للآخرين" تقول:

"ما أقسى نهاية الأشياء نهاية الأيام والأعمال والأعمار، عندما لا تكون هذه النهاية كمالاً لجهد أو حتى مجرد اكتمال له بل تكون مجرد تعلق في الفضاء الأجوف، مجرد تأمل مجرد."

تواصل:

"ليس الموت نهاية الحياة عندما يكون إكتمالاً صحيحاً لعمرٍ زاخِرٍ بالجهد المثمر أو تحقيقاً لعملٍ مشرق، بل يكون كمالاً حياً وبداية حياة أعمق."

ثم تواصل قائلاً:

"اللهم هبني أن أعرف - ان أعبر - أن اعمل - ان أبداع. هبني القدرة علي أن أحسن النهاية التي تضع البداية للآخرين و أن أحسن البداية التي لا تنتهي بنهايتي."

سوف نعود نحن والأجيال القادمة إلي كتاباتك لتبعث فينا روح التفاؤل والأمل والتساؤل وتعلمنا ان للحياة معني، وللنضال معني. في كلماتك المضيئة نجد معاني الخير والحب والتسامح والجمال.

متعك الله بموفور الصحة والعافية وانت لا تزال علي الساحة تواصل عطاءك لأبناء وطنك في مصر والبلاد العربية.

تحية لك يا ضيفنا الكبير وأنت القابض علي مُثلك، ومبادئك، مثل القابض علي الجمر.

تحية لك يا ضيفنا المكرم فأنت محمود و أمين و عالم.